العدد (4068) السنة الخامسة عشرة - الثلاثاء (21) تشرين الثاني 2017
http://www.almadapaper.net Email: info@almadapaper.net

القضية الأوكرانية وعبثُ التأريخ

□ عبد الله حبة

أثارت اهتمامي المقالة التي كتبها الأستاذ الفاضل ياسين طه حافظ ونشرتها "المدى" في ٢٠١٧/١١/٢ بعنوان "حضور السياسي وغياب العقلي في القضية الأوكرانية". وقد وردت فيها آراء تتعلق بتاريخ روسيا وقيام الدولة الاوكرانية بعيدة جداً عما ينشر في كتب التاريخ سواء الروسية أم الاوكرانية. والتاريخ قاسٍ لا يعرف الرحمة، حيث يعتمد على الحقًائق فقط. ويبدو أنَّ الكاتب قد اعتمد على المصادر الغربية التي تشوّه سياسة روسيا بجميع الوسائل المتاحة لديها.

إن الكاتب يخطئ حين يقول "إن بداية الدولة الأوكرانية الأولى كانت في عهد "روس كييف" وحكومة القوزاق الأوكرانية". إن الحديث عن دولة "روس كييف" التي نشأت في القرن التاسع الميلادي يقودنا الى استعراض حكامها وجميعهم من الأمراء الاسكندنافيين والسلافيين مثل اسكولد ودير وأوليج وايجور وأولجا وسفياتسلاف وغيرهم، الذين كانوا هم دون غيرهم من مؤسسي الدولة الروسية وليس الدولة الاوكرانية لاحقاً. ولا تذكر اسفار التاريخ القديمة باللغة الروسية أي شيء عن "حكومة القوزاق " الاوكرانية أو الأوكرانيين عموماً.

وحتى في كتاب "تأريخ اوكرانيا" الذي كتبه القومي الأوكراني المتشدد ميخائل غروشيفسكي (١٠ مجلدات) لا يشير الى وجود حكومة القوزاق الأوكرانية في القرن التاسع. بل يرد في سفر التاريخ الذي كتبه الراهب نيستر "أن كييف أم المدن الروسية" وهذه العبارة نقشت على لوح من المرمر في دير بيتشورسكي في كييف، ولم يذكر إنها أم المدن الاوكرانية. وعندما تولى السلطة فلاديمير إبن سفياتسلاف (ويوصف في كل مكان بأنه أمير معظم روسي ويوجد نصب له على ضفاف الدنيبر وآخر قبالة الكرملين) اعتنق المسيحية وأرغم الرعية على التصبؤ ونبذ الديانات الوثنية. كما أسس يوري دولغوروكي مدينة موسكو وهو إبن فلاديمير مونوماخ أمير روس - كييف. وتشير المراجع التاريخية الحديثة سواء الروسية أم الأوكرانية الى قيام الدولة الروسية الموحّدة من إمارة نوفغورود وأمارة كييف، بلا ذكر أيّ دور في ذلك الى الشعب الاوكراني . وفي عهد القيصر الكسي ميخايلوفتش اطلقت على مناطق جنوب روسيا التي يقطن فيها القوزاق تسمية اوكراينا – اي الأقليم الواقع في الاطراف. وحدث الانقسام لاحقاً في عهد بطرس الأكبر حين وقف القيصر الروسي أمام الجيش السويدي في معركة بولتافا في عام ١٧٠٨ والى جانبه مازيبا زعيم قوزاق زابوروجيه، لكن الأخير انسحب من الجبهة وانضم الى السويديين في لحظة حرجة بعد أن تلقى مبلغاً من المال من ملك السويد.

هذه أمور كانت تحدث في كل مكان في ذلك الزمان. وقد هرب مازيبا لاحقاً الى اسطنبول وطلب الحماية من السلطان العثماني. علماً أن القوزاق القاطنين في الاطراف الجنوبية للبلاد، اصبحوا يسمون بالأوكرانيين ولم توجد لهم أية دولة آنذاك. وكتب نيقولاي غوغول روايته "تاراس بولبا" عنهم بوصفهم من الروس. وشاعت في وثائق الامبراطورية الروسية حتى قيام الحرب العالمية الأولى تسميات " فيليكايا روسيا" أي روسيا الكبرى و"مالو روسيا " أي روسيا الصغرى- اوكرانيا و"بيلو روسيا" أي روسيا البيضاء. ونظراً لسيطرة المملكة البولندية ثم الامبراطورية النمساوية- المجرية على غرب اوكرانيا (غاليسيا) وبيلوروسيا خلال فترات مختلفة فقد تأثرت لغة ساكنيها بلغة الفاتحين وتشكلت لهجات جديدة تختلف عن الروسية، مثل اختلاف اللهجة الجزائرية عن العراقية مثلاً. ونجد في اللغة الاوكرانية الحديثة الكثير من الألفاظ البولندية والألمانية مما يجعلها مختلفة عن اللغة الروسية. ولهذا تعتبر لغة قائمة بذاتها، ولو أنني لدى زياراتي الى اوكرانيا كنت أفهم بعد مرور يومين أو ثلاثة الحديث باللغة الاوكرانية.

لقد حاول الاوكرانيون بعد انهيار الامبراطورية الروسية تأسيس دولتهم لكن محاولتهم باءت بالفشل، ولم تنشأ الجمهورية الاوكرانية السوفيتية إلا بعد قيام ثورة اكتوبر في عام ١٩١٧ حن أصر لينين على منح الشعب الاوكراني حقّه في تقرير المصير أسوة بشعوب الامبراطورية الروسية الأخرى، وذلك بهدف كسبه الى جانب الثورة البلشفية. لكن كانت مناطق غرب أوكرانيا (غاليسيا) واقعة تحت سيطرة بولندا ومن ثم ألمانيا. وحاول الاوكرانيون في عام ١٩١٨ أبان الحرب الأهلية تأسيس دولتهم. و اصبحت عاصمة الجمهورية الاوكرانية السوفيتية آنذاك مدينة خاركوف، ولم تصبح كييف عاصمة لها إلا بعد عام ١٩٣٩ حين وقعت اتفاقية مولوتوف – روبنتروب الذي تقاسم فيه الاتحاد السوفيتي والمانيا النازية مناطق النفوذ. وفي فترة الحرب العالمية الثانية، حاول القوميون الاوكرانيون بزعامة ستيبان بانديرا، وهو ابن قسيس كاثوليكي في مملكة غاليسيا ولودوميريا التابعة للامبراطورية النمساوية (غرب اوكرانيا حالياً) تأسيس دولتهم وانضموا الى القوات النازية وشكلوا جيش التحرير الاوكراني بقيادة جنرال الماني. ومارس أفراد هذا الجيش جرائم وحشية ضد الاوكرانيين الشرقيين والروس واليهود وبقية القوميات منها مذبحة بابي- يار المعروفة التي خلدها الموسيقار شوستاكوفتش في سيمفونيته رقم ١٣ والمستوحاة من أشعار يفتوشينكو. لكن القوات النازية لم تسمح لهم بتأسيس دولتهم . وبعد الحرب هرب بانديرا وأعوانه الى خارج البلاد واغتاله عملاء ستالين في عام ١٩٥٩ في المانيا.

إن النزعة القومية الاوكرانية قد تصاعدت حتى في الفترة السوفيتية، وتسلم السلطة ثلاثة من زعماء الاتحاد السوفيتي من اوكرانيا، هم خروشوف وبريجنيف وكيريبنكو. وكان هؤلاء يعيرون اهتماماً خاصاً الى تطوير الاقتصاد الاوكراني ولاسيما في الميدان الصناعي. وشيّدت فيها أضخم المصانع والمشاريع ومنها محطات توليد الكهرباء ومصنع محركات الصواريخ ومصنع الدبابات ومصنع طائرات انطونوف وغيرها. وعمد خروشوف في عام ١٩٥٤ بمناسبة الاحتفال بذكرى قبول الزعيم الاوكراني بوغدان خميلنتسكي رعاية القيصر الروسي لأقاليم مالوروسيا بإهداء القرم ذي الأغلبية الروسية الى جمهورية اوكرانيا بدون موافقة مجلس السوفيت الأعلى وإجراء استفتاء هناك، ولهذا اعتبر هذا الإجراء لاحقاً غير قانوني.

وكان زعماء الاتحاد السوفيتي يتخذون مثل هذه القرارات في غمرة نزواتهم . ويقال إن ستالين كان يمسك بخريطة الاتحاد السوفيتي ويرسم بالقلم الأحمر التقاسيم الادارية للبلاد. وهكذا أصبحت جمهورية ابخازيا السوفيتية إقليماً تابعاً لجورجيا ،وكذلك الحال بالنسبة الى جنوب اوسيتيا. كما ضمّ أقليم قره باغ وأقليم ناخيتشيفان وغالبية سكانهما من الأرمن الى اذربيجان. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي تولدت مشاكل ونزعات انفصالية في عدّة مناطق ما زالت تحتدم هناك.

لقد لعبت القيادة الحزبية الاوكرانية دوراً رئيساً في تفكك الاتحاد السوفيتي، حيث كانت المبادرة لإصدار القرار الثلاثي (من زعماء روسيا وبيلوروسيا واوكرانيا) بيد كرافتشوك السكرتير الأول للحزب الشيوعي الاوكراني. وكان من الطبيعي أن يستغل الغرب وحلف الناتو تطلعات القوميين الاوكرانيين الى الابتعاد عن روسيا. ولهذا ساند "الثورة البرتقالية" في عام ٢٠٠٤، وبعد فشل الحكومة فاز حزب الاقاليم في الانتخابات التالية والذي اتبع سياسة التقارب مع روسيا. لكن القوميين نفذوا في عام ٢٠١٤ انقلابهم الثاني بدعم الاتحاد الاوروبي والناتو. وجاء الى كييف لإلقاء الخطب في الميدان لدعم غلاة القوميين الاوكرانيين السناتور الامريكي جون ماكين ورئيس ليتوانيا ورئيس وزراء بولندا وغيرهم من الشخصيات. وقد اضطر الرئيس الاوكراني يانوكوفتش الى الهرب الى روسيا بعد تعرضه لمحاولة اغتيال واستولى المجتمعون في " الميدان" على السلطة . فبدأت مشكلة احتجاج أهالي القرم على الانقلاب، وإعلان الانفصال ثم اجراء الاستفتاء على الانضمام الى روسيا . كما قام أهالي أقليم الدونباس الغني بمناجم الفحم بحركة احتجاج واعلنوا قيام جمهوريتي دونيتسك ولوغانسك الانفصاليتين اللتين لا يعترف بهما أحد. وبدأت الحرب الأهلية المتواصلة حتى الآن.

لعبت القيادة الحزبية الاوكرانية دوراً رئيساً في تفكك الاتحاد السوفيتي، حيث كانت المبادرة لإصدار القرار الثلاثي (من زعماء روسيا وبيلوروسيا واوكرانيا) بيد كرافتشوك السكرتير الأول للحزب الشيوعي الاوكراني.

إن توق القوميين الاوكرانيين ولاسيما في المقاطعات الغربية التي كانت تحت سيطرة بولندا الى الانضمام الى الاتحاد الاوروبي شيء طبيعي، لأنهم ينتمون ثقافياً ودينياً الى اوروبا الغربية. فالكنيسة الاوكرانية الغربية (الاونيونية) تابعة الى الفاتيكان. لكن المشكلة هي وجود نسبة كبيرة من سكان شرق وجنوب اوكرانيا والقرم من الناطقين باللغة الروسية وينتمون ثقافياً ودينياً الى روسيا، كما إن الكنيسة الارثوذكسية الاوكرانية ما زالت تابعة الى بطريركية موسكو . والآن أصدرت السلطات الاوكرانية قانوناً بمنع استخدام اللغة الروسية وغيرها (لاسيما لغات الاقليات- المجرية والرومانية وغيرها) في الأماكن العامة وأغلقت المدارس الروسية وتم منع بيع الكتب والصحف باللغة الروسية في المكتبات وتوقف بث جميع القنوات باللغة الروسية حتى الثقافية والرياضية. علماً ان السلطات الروسية لم تفرض من جانبها أيّ حظر على اللغة الاوكرانية والمدارس الاوكرانية في روسيا.

إن الحديث "عن حرية التعبير والمعتقدات وحرية الاطلاع والسفر" الذي أورده الكاتب الفاضل شيء لا وجود له اليوم في اوكرانيا حالياً. إن مئات الآف العمال الاوكرانيين الذين كانوا يجدون فرص العمل في روسيا لا يستطيعون السفر إليها اليوم. فعن أية حرية في السفر والاطلاع يتحدث الكاتب.

ومشكلة اوكرانيا الآن لا تتعلق بالتوق الى الاستقلال والحرية والتمتع بالديمقراطية الغربية واقتصاد السوق. وبهذه المناسبة أود الإشارة الى أن الديمقراطية الحقيقية لا تعلن بمرسوم او إصدار قانون، بل هي عملية تاريخية تحتاج الى مراحل تطور عديدة مرت بها الشعوب الاوروبية الغربية سابقاً. إن الديمقراطية في فرنسا وبريطانيا اليوم هي غير الديمقراطية في رومانيا وبلغاريا وكوسوفو، حيث لا توجد تقاليد ديمقراطية. فهذه الدول لم تصبح "اوروبية " متقدمة بمجرد انضمامها الى الاتحاد الاوروبي. أن وضع المهاجرين من آسيا وافريقيا الى الدول الاوروبية يظهر إنهم لم يكتسبوا من تطور الشعوب الاوروبية شيئاً كما أنهم لم يستطيعوا الاندماج في مجتمعاتها. وكما نعرف أن الاتحاد الاوروبي لا يضم دولاً تتمتع بحقوق متكافئة حيث تفرض الدول الأقوى اقتصادياً وعسكرياً رأيها على الدول الصغيرة التي فقدت في الواقع استقلالها.

إن الأزمة الاوكرانية – الروسية ، هي مأساة شعبين ذوي جذور واحدة، وما كان يمكن تفاديها البتة. وقد أرادت موسكو في البداية الحيلولة دون زحف الناتو الى حدودها المباشرة وفقدان قاعدتها البحرية الضخمة في القرم بغية تسليمها الى دول الناتو لاحقاً، وعدم استخدام اوكرانيا كمعبر لدخول البضائع الغربية الى الاسواق الروسية الكبيرة بأسعار رخيصة، والشيء الأهم الدفاع عن مصالح ١٠ ملايين من مواطني اوكرانيا الناطقين باللغة الروسية.

إن الغرب أفلح في تمرير "ثورة ملونة" في اوكرانيا بعد " الثورة الملونة" التي نفذها في جورجيا العميل الامريكي ميخائيل ساكاشفيلي الرئيس الجورجي السابق، الذي يريد إسقاط الرئيس الاوكراني في كييف حالياً. لكن الغرب قد خلق مشاكل لشعبي هذين البلدين ، كما فعل في ليبيا والعراق وافغانستان وسوريا بهدف زعزعة الوضع فيها. وكما نشاهد في الشرق الأوسط حالياً، فإن التدخل الاجنبي غالباً ما يكون سبب مصائب شعوب المنطقة. والغرب لن يقبل البتة بتسوية القضية الاوكرانية لأنه يربح كثيراً من استغلالها في الضغط على روسيا وفرض العقوبات عليها وعزلها دولياً في المجالات كافة – في السياسة والاقتصاد والرياضة والثقافة.

روزا الحمراء ومقاومة الفساد في العراق

□ ياسر جاسم قاسم

الفساد الذي ينخر في الدولة العراقية منذ التغيير في ٢٠٠٣ وحتى اليوم، إنما هو فساد منظم وممنهج، تقوده مافيات وتستوفي سرقاتها التي فاقت التصور من جيوب الناس ومواردهم وخيراتهم، وتبدو الحكومة العراقية التي ظهر رئيسها قبل ايام ماسكاً مكنسته لتنظيف شوارع كربلاء عاجزة عن وضع حد لهذه السرقات وكنس المفسدين، بعدما تمدد الفساد واتخذ أشكالاً متعددة داخل مفاصل الدولة العراقية .

أفكر أحياناً ببعض الشخصيات الثورية مثل : روزا لوكسمبورغ، الثائرة التي وقفت مناصرة للجماهير والعمال، افكر في عظمة شخصها وأقول كم نحن بحاجة الى أمثالها لانتشال البلاد من شر المافيات الفاسدة التي تعجز الحكومة عن مناهضتها. روزا التي ولدت في بولونيا عام ١٨٧١م، ودرست في وارشو، وغادرت بولونيا وهي في التاسعة عشرة الى النمسا وسويسرا ثم اكتسبت الجنسية الألمانية عام ١٨٩٨م، عرفت الاجتماعات والتظاهرات والمؤتمرات والسجن أيضاً، نتيجة لمواقفها الإصلاحية ووقوفها بوجه الطبقات الرأسمالية، قال عنها بريخت:

روزا الحمراء اختفت أيضاً
ومجهول هو المكان الذي ترقد فيه جثتها
يجب أن تقال للفقراء الحقيقة،
لقد أعدم الأغنياء روزا

روزا التي اعتبرها البعض الشخص الثاني بعد ماركس، بل العقل الثاني بعده، لقد افهمت روزا أن القوة الوحيدة القادرة على كسر سلاسل البيروقراطية هي: مبادرة العمال أنفسهم وكان مبدأها الأساس هو البقاء الى جانب الجماهير من خلال نشاطهم ومحاولة مساعدتهم، وكانت تحذر من أن تقود الرأسمالية الى دفن الانسانية تحتها، روزا جسّدت المشاعر الانسانية وتعاطت مع المظلومين والمقموعين، وكان هذا دافعاً مركزياً في حياتها، مشاعرها العميقة وتضامنها مع معاناة الناس وجميع الناس تجسدت في كل شيء، كان شعارها الانساني فوق كل اعتبار ومطمحها تحقيق العدالة الاجتماعية الى أن ضربت حتى الموت بأعقاب البنادق وألقيت جثتها في قناة "لاندفر".

في العراق اليوم لدينا سلسلة كبيرة من البيروقراطيين "من قادة عسكريين، رجال دين، رجال سياسة، شيوخ عشائر متنفذين، سماسرة شركات وهمية تقودها شخصيات أما سياسية أو دينية وغيرها كثير"، نجد كل هؤلاء يتحكمون بمصائر الشعب وبمقدرات البلد، والناس وحسب لوكسمبورغ، فإن القوة الوحيدة القادرة على كسر هذه السلسلة البيروقراطية المقيتة هي قوة الجماهير نفسها، العمال الموظفون، الناس، هم القادرون على وضع حد للطغيان المتأتي من هذه الفئات الفاسدة والغارقة بالفساد، ورميها في مزبلة التاريخ.فرأسماليتهم الطاغية ورؤوس أموالهم التي جنوها من خلال سرقاتهم المرعبة، دفنت الانسانية في هذا البلد الذي يتصدر العالم بعدد الأرامل والمعوزين والفقراء، فالمظلومون والمقموعون يجب أن تكون لهم إرادة كسر البيروقراطية الظالمة في عراق اليوم، ولا ننسى إن اكارا "فلاح" بسيط كـ"حمدان قرمط" قاد اكبر انتفاضة للمظلومين "حركة القرامطة" تجاه أعتى امبراطورية استبدادية عرفها التاريخ "الدولة العباسية" قضت مضاجعهم هذه الحركة العظيمة التي حققت العدالة الاجتماعية وسحبت البساط من الطبقات الظالمة المفسدة آنذاك، التي امنت بمنافعها ومنافع جهاتها من قادة عسكريين ورجالات دين ووزراء وغيرهم. وكأن التاريخ يعيد نفسه، حيث يسود العراق اليوم ظلم اجتماعي كبير، بسيادة هؤلاء البيروقراطيين وتحكمهم بمصائر الناس ووجود طبقات معدومة اجتماعياً، ولا حل لها سوى الموت والفناء، أما الموارد والمقدرات ووسائل الانتاج، فجميعها بيد هؤلاء الحاكمين. إن روزا الحمراء، لمن الصعب أن توجد في بلادنا، لأن الذهنية التي يجب أن تؤمن بروزا يجب أن تؤمن بالثورة الاصلاحية تجاه الفساد والمفسدين، وإن حمدان قرمط، إذا شئنا أن نراه موجوداً، فيجب أن نؤمن بمبدأ العدالة الاجتماعية التي يجب أن تتحقق في البلاد، فكم نحن بحاجة روزا وحمدان قرمط وغاندي وجيفارا كي نحقق ما نصبو إليه وننقذ ما تبقى من هذا البلد من أفسد طبقة سياسية عرفها العراق منذ وجوده. فالإنسانية هي الاعتبار الأسمى، ولنتصور أن من يريد أن يمشي على خطى روزا في الاصلاح، وحمدان في العدالة، سيُتهم اليوم بأنه أما بعثي أو إرهابي يريد أن ينال من نظام الحكم، ويسخر من الدين والطائفة، وهو أيضاً قد يلاقي ما لاقاه حمدان من اختفاء غامض أو روزا ميتة بأعقاب البنادق.

بند "التدخلات الإيرانية"

□ غسان شربل *

يكفي أن يفتح وزراء الخارجية العرب خريطة العالم الذي ينتمون إليه ليتأكدوا أن اجتماعهم الطارئ في القاهرة أمس، كان مبرراً وضرورياً. فالحديث عن «التدخلات الإيرانية» ليس تهمة عابرة تفتقر إلى الأدلة. والإصرار على مناقشتها لا يدخل أبداً في باب التحرش أو التصعيد. إنه محاولة لبلورة إرادة عربية موحدة حيال التعامل مع واقع يومي ضاغط يعيشه العرب في مجموعة دول وخرائط. ولا يقتصر الأمر على الدول التي تتحرك الميليشيات المدعومة إيرانياً على أراضيها، ذلك أن مفاعيل مسلسل التدخلات تمس موازين القوى على امتداد المنطقة.

اللافت في هذه التدخلات هو أن طهران لا تحاول أن تنفيها. الصاروخ الذي استهدف الرياض يحمل توقيعاً صريحاً، ولا يحمل الحوثيون فيه غير صفة المنصة التي استخدمت في إطلاقه. وصور الجنرال قاسم سليماني يتحرك وسط المسلحين وبين دول الهلال لا تترك مجالاً للشك. وحديث جنرالات «الحرس الثوري» عن السيطرة على أربع عواصم عربية ليس مجرد هفوات أو مبالغات. وكلام الرئيس حسن روحاني نفسه عن المعبر الإيراني الإلزامي على مستوى المنطقة يستكمل الصورة.

«التدخلات الإيرانية» ليست حدثاً جديداً. سياسة «تصدير الثورة» هي بالدرجة الأولى إشهار لحق التدخل في شؤون الدول الأخرى. جديد التدخلات هو اتساع حجمها وتزايد خطورتها وعلانيتها، وما تحاول إحداثه من تغييرات عميقة في المسارح التي تستهدفها. تغييرات سياسية. وانقلابات في موازين القوى بين المكونات. وتغييرات ديموغرافية لضمان تكريس الملامح الجديدة.

«التدخلات الإيرانية» ليست جديدة. لكنها اتخذت بعد الدور الإيراني الصريح في اليمن منحى أكثر خطورة. الجديد في المقابل هو شعور الدول المستهدفة بأنها لم تعد قادرة على إرجاء تسمية الأشياء بأسمائها وتحويل هذه التدخلات بنداً ثابتاً في اللقاءات العربية والمحادثات مع القوى الدولية. الجديد أيضاً هو وجود إدارة أميركية لا تنام على حرير الاتفاق النووي الذي كان إنجازه هاجساً لازم باراك أوباما. فالإدارة الحالية أدرجت بند «التدخلات الإيرانية» في صلب علاقتها مع المنطقة ودولها وأزماتها.

وجديد «التدخلات الإيرانية» هو أن طهران لم تتعامل مع الاتفاق النووي كفرصة للعودة إلى احترام القوانين والمواثيق الدولية. يمكن القول إن ما حصل هو العكس تماماً. فبعد توقيع الاتفاق رفعت طهران وتيرة تدخلاتها في المنطقة وكأنها اعتبرت الاتفاق فرصة لا بدّ من اغتنامها وتوظيفها في خدمة مشروع «الانقلاب الكبير». وهكذا بدا المشهد غير مسبوق. إسقاط لحصانة الخرائط. وانتهاك للقوانين الدولية. وتحويل ميليشيات حليفة إلى جيوش صغيرة جوّالة تسقط أنظمة، وتمنع إسقاط أخرى بغض النظر عن مشاعر أهل تلك الخرائط المخترقة أو معظمهم. وزاد الأمر خطورة تشكيل ميليشيات صاروخية تستكمل الانتهاكات التي تمارسها الميليشيات باندفاعاتها البرية.

وجديد «التدخلات الإيرانية» هو أن مناقشتها جاءت بعد انحسار خطر تنظيم داعش الإرهابي. فقد أعاد انحسار هذا الخطر تسليط الضوء على حقيقة مفادها أن زعزعة الاستقرار لم تبدأ مع إطلالة «داعش» ولن تنتهي بانحسارها. وثمة من يعتقد أن سياسة زعزعة الاستقرار الإيرانية ذات العمق المذهبي كانت السبب في تصدع الوحدة الوطنية في أكثر من قطر عربي وأن «داعش» أطل من خلال هذه التصدعات.

ولأن المنطقة هي أيضاً منطقة ثروات وممرات حيوية للاقتصاد العالمي، تصاعد القلق الدولي من البصمات الإيرانية على الصواريخ والميليشيات معاً. فعشية اجتماع القاهرة تحادث دونالد ترمب وإيمانويل ماكرون حول وضع الشرق الأوسط. وقال البيت الأبيض إن الرئيسين «اتفقا على ضرورة العمل مع الحلفاء لمواجهة أنشطة حزب الله وإيران المزعزعة للاستقرار في المنطقة».

بلغت التدخلات الإيرانية حداً غير مسبوق. هذا الواقع أحرج حتى الدول التي تستعذب الإقامة في المناطق الرمادية، وتفضل علاج الجروح العربية بالعبارات العامة المكررة. صار من الصعب على أي وزير عربي العثور على تبرير للسلوك الإيراني أو على ذرائع لمنحه أسباباً تخفيفية. الصاروخ الإيراني على الرياض ومضمون استقالة رئيس الوزراء اللبناني سعد الحريري قدما أدلة جديدة لمن لا يزال يبحث عن أدلة.

يفسر تصاعد التدخلات اللهجة التي استخدمها الأمين العام للجامعة العربية أحمد أبو الغيط في افتتاح الاجتماع. ويفسر أيضاً اللهجة الحازمة التي استخدمها وزير الخارجية السعودي عادل الجبير. لقد اتُهمت إيران في الاجتماع بانتهاج سياسات طائفية وتأسيس ميليشيات تابعة لها على الأرض العربية والتدخل في الشؤون الداخلية. وهذه الاتهامات كلها ترشح بند التدخلات لانتزاع الموقع الأول في جدول أعمال اللقاءات الإقليمية والدولية. ولا مبالغة في القول إن الموقف من هذه التدخلات سيكون عاملاً مؤثراً في العلاقات العربية – العربية وكذلك في العلاقات العربية – الدولية.

ثلاثة أطراف يجب أن تتوقف عند نتائج الاجتماع الطارئ لوزراء الخارجية العرب. الأول هو إيران التي أدان المجتمعون سلوكها. والسؤال هو هل تريد أن تتعايش مع جيرانها العرب في الإقليم أم أنها تصر على محاولة إخضاعهم؟ إذا تمسكت بالخيار الثاني فهذا يعني أن رياح المواجهة ستشتد، وأن إيران ستواجه حالة من العزلة. الطرف الثاني هو «حزب الله» الذي يتحتم عليه أن يتبصر فيما طرأ على صورته لدى معظم العرب. لم تعد لهذه الصورة علاقة بالمقاومة ضد إسرائيل، بل صار ينظر إليه باعتباره منظمة إرهابية انطلاقاً من دوره في الانقلاب الإيراني. الطرف الثالث الرئيس ميشال عون الذي سيكون الخاسر الأكبر من استقالة سعد الحريري. لا معنى لوجود عون في قصر الرئاسة، وهو قائد سابق للجيش، إن لم يوظف موقعه ورصيده في الدفاع عن الحد الضروري من فكرة الدولة ومقومات وجودها والدفاع عن مصالح اللبنانيين.

ما لم تتخذ إيران قراراً سريعاً بوقف هجومها الشامل في الإقليم، فإن بند «التدخلات الإيرانية» سيكون عنوان المواجهة المقبلة وعنوان الاصطفافات. وسيكون البند نفسه عنوان التحرك في اتجاه مجلس الأمن، وسيترك بصماته على أوضاع الساحات المشتعلة وتلك المرشحة للاشتعال.

* *رئيس تحرير «الشرق الأوسط»*